مجلة التاريخ المتوسطي. المجلد 03، العدد 01. شهر جوان 2021. ص.84 – 100.

التواصل الحضاري بمدينة بجاية: من مغارة قلدأمان إلى مدينة الناصرية

Civilizational communication In Bejaia: from the Gueldaman cave to the city of Nasiriyah

مريم عبد السلامين، دكتورة، التاريخ والحضارات القديمة،

جامعة الجزائر 2أبو القاسم سعد الله.

meriem.Abdesselamyene@univ-alger2.dz

ت. الارسال:2021-04-18	ت. المراجعة: 2021-05-30	ت. القبول:06 – 06 -2021

الملخص:

تعتبر بجاية من المدن القديمة في الشمال الإفريقي، فقد دلت الدراسات والأبحاث على أن هذه المنطقة كانت تمثل إحدى أهم المراكز في التاريخ القديم، فكانت تضم العديد من المغارات والمواقع القديمة وتوجد بها أقدم الآثار للاستقرار البشري من فترة ما قبل التاريخ، فهي منطقة جاذبة للسكان لكونها تتوفر على شروط الحياة كالمياه وخصوبة التربة وحصانة مناطقها الطبيعية؛ لذا فقد تعاقبت عليها عدة حضارات أهمها الحضارة النوميدية، الفينيقية، الرومانية، الوندالية، البيزنطية والاسلامية.

وعلى هذا الأساس سنحاول في هذه المقالة البسيطة تسليط الضوء على هذه الحضارات التي تعاقبت على المدينة، والدور الحضاري الذي لعبته في ازدهارها.

الكلمات المفتاحية: بجاية ؛ الدور الحضاري ؛ مغارة قلدأمان ؛ صلداي ؛ الناصرية.

Abstract:

Bejaia is considered one of the oldest cities in North Africa. Studies and researches have shown that this area was one of the most important centers in ancient history. It included many caves and ancient sites and the oldest archeological sites of prehistoric human settlement. It was attractive to the population because it met the conditions of life such as water, soil fertility and these curing of its natural areas. Therefore, several civilizations have succeeded in Bejaia, the most important are the Numidian, Phoenician, Roman, Vandals, Byzantine and Islamic civilizations.

On this basis, we will try in this simple article to shed light on these civilizations that followed the city and the cultural role it played in its prosperity.

Key words: Bejaia; the role of civilization; the Gueldaman cave; Saladae; Nasiriyah.

المؤلف المرسل: مريم عبد السلامين ، **الإيميل**: abdesselamyene.meriem@gmail.com

مقدمة

تعتبر بجاية من أمهات المدن الإفريقية العتيقة، فقد دلت الدراسات والأبحاث على أن هذه المنطقة كانت تمثل إحدى أهم المراكز في التاريخ القديم، فكانت تضم العديد من المغارات والمواقع القديمة وتوجد بها أقدم الآثار للاستقرار البشري من فترة ما قبل التاريخ، فهي منطقة جاذبة للسكان لكونها تتوفر على شروط الحياة كالمياه وخصوبة التربة و حصانة مناطقها الطبيعية. هذا ما جعلها تتعاقب عليها عدة حضارات أهمها الحضارة النوميدية، البونية، الرومانية، الوندالية، البيزنطية والاسلامية.

بنى الاستعماريون فكرة مفادها أن الشمال الأفريقي هو أرض الفتوحات عبر التاريخ، وفسروا خلو بعض الطبقات من بقايا أثرية بتوقّف "الإنتاج الحضاري" بانتظار وصول "شعب" جديد؛ ممّا جعل الباحثين الجزائريين يبذلون جهودهم لإثبات تفاهة هذه الأحكام ذات النزعة الكولونيالية ووجدوا في منطقة بجاية الدليل الذي يفنّد مزاعم الفكر الاستعماري، فقد استخرجت بقايا وأدوات تعود إلى مختلف عصور ما قبل التاريخ ممّا يدل على التواصل الحضاري وأنّ الفراغ الذي بنى عليه مؤرخو وأثريو الفترة الاستعمارية استنتاجاتهم المغرضة يجب إعادة النظر فيه واعادة البحث (عقون، 2009: 2).

وعلى هذا الأساس سنحاول في هذه الدراسة الإجابة على الإشكالية التي مفادها ما هي التطورات التي عرفتها مدينة بجاية على مر تاريخها القديم؟ وما هو الدور التاريخي والحضاري لهذه المدينة العريقة بعد تلك الإشارات المحدودة التي قدمتها المصادر الأدبية ونقص الأبحاث الأثرية خاصة في فترة ما قبل التاريخ؟

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن بعض الحقائق التي أخفاها بعض المؤرخين الأجانب أو قدموها من وجهة نظرهم الخاصة، وتسليط الضوء عن الحضارات التي تعاقبت على المدينة من فترة ما قبل التاريخ إلى الفترة الإسلامية، والدور الحضاري الذي لعبته كل حضارة في ازدهارها، ومحاولة البحث في خبايا ماضي مدينة بجاية في العصور القديمة، وتوضيح مختلف التطورات التي عرفتها هذه المدينة منذ العصور القديمة إلى الفترة الإسلامية والدور التاريخي والحضاري الذي اضطلعت به هذه المدينة على مر تاريخها القديم.

1. مدينة بجاية في فترة ما قبل التاريخ:

وجدت آثار إنسان ما قبل التاريخ في هذه المنطقة في أديم الأرض أو في طبقات جيولوجية، فقد عرف إنسان ما قبل التاريخ الشعور الديني مبكرا ورسخه أساسا في وجود المدافن التي أقامها لدفن موتاه. ومع ظهور العصر الحجري القديم المتأخر في المنطقة، نستطيع التحدث عن الحياة الروحية لإنسان ما قبل التاريخ، فقد عثر على الكثير من الهياكل العظمية المحفوظة جيدا في العديد من المواقع التي تعود إلى هذا العصر، كما أنه يعتبر أول إنسان مارس شعائر ومعتقدات محدّدة تدل على درجة عالية من التقدّم الفكري، والتي لم يعرفها أسلافه من قبل، إذ لم يترك أي أثر يدل على ظاهرة الدفن، حيث تم الكشف عن بقايا بشرية عديدة في موقع آفالو- بورمال بالقرب من بجاية؛ وقد أثبتت الأبحاث في أواخر القرن العشرين لهذا الموقع على وجود العديد من الهياكل العظمية تدل على ممارسات طقوسية خلال هذه الفترة[1] (ساحد، 2014: 65).

يمكن معرفة التتابع الحضاري للمنطقة عبر عصور ما قبل التاريخ ،إذا وجدت بقايا صناعة حجرية ما في طبقة جيولوجية من المنطقة فإنّ ذلك مؤشّر يمكّن من تأريخها أي تحديد الفترة الزمنية للأدوات المكتشفة، سواء أكانت نباتية أو حيوانية، ومن دراسة كل البقايا التي يتمّ العثور عليها في مختلف الطبقات، ولكن يمكن أن تخلو طبقة جيولوجية ما من البقايا الأثرية وحينئذ يفسّر ذلك بفترة فراغ حضاري .

وهذا ما أكدته نتائج الحفريات التي يقوم بها المركز الوطني للأبحاث في عصور ما قبل التاريخ و الأنثروبولوجيا، الذي يتكون من مجموعة من الباحثين الأثريين يقودهم الباحث الجزائري فريد خربوش، ففي أعالي جبال قلدأمان ببجاية وعلى أراضي بلدية بوحمزة قرب قرية بوهشم غرب أقبو على الضفة اليمنى من وادي الصومام ، تم اكتشاف المغارة التي كان يعيش فيها الإنسان قبل 7 آلاف سنة ، هذه المغارة التي تم اكتشافها سنة 1920 من قبل بعثة أوربية ، وكانت نتائج الحفريات التي قام بها A.DeBeaumais et P.Royer في إحدى المغارات المكتشفة، لأن الجبل مليء بالمغارات، غير أن ما توصلت إليه هذه التنقيبات مناف تماما لما وجد حاليا ، ففي تقرير البحث الأثري سنة 1926 لم يذكروا وجود بقايا فخار وبه عسل وقمح وحلي وبقايا حجرية

[1] للتطلع أكثر حول الموضوع أنظر: Arambourg C., Boule M., Vallois H. et Verneau R., 1913. - Les grottes des. Beni-Seghouals (Algérie). Arch. de l'I.P.H, Paris, Mém. n° 13, pp : 189-206 ; Hachi S., 1996.- Résultats des fouilles récentes d'Afalou bou Rmel (Béjaïa, Algérie). Journée d'étude du C.N.R.P.A.H, Avril1996. pp : 99-118.

وعظمية لحيوانات مختلفة وغيرها ، فيدخل هذا الاكتشاف في إطار الأفكار الجاهزة التي كانت متداولة ومقبولة ، بل وكانت إلى وقت قريب من المسلمات، على أساس أن كل الإبداعات الحضارية والإسهامات الثقافية، بل وحتى العناصر البشرية التي عرفها بلاد المغرب القديم كلها آتية من الخارج، إلا أنها اتضحت بالتدريج ومع توالي الاكتشافات الأثرية أنه لا أساس لها من الصحة، وأن أبناء هذه الرقعة الجغرافية ساهموا في إنشاء الحضارات الإنسانية وكانت لهم إبداعات خاصة بهم- لذا علينا إعادة النظر في تاريخ المنطقة بصفة خاصة وتاريخ بلاد المغرب القديم بصفة عامة وإعادة كتابة تاريخ المنطقة بأقلام محلية إفريقية بعيدا عن الذاتية والعنصرية والنزعة الاستعمارية. فنتائج الحفريات التي تقام في المنطقة قد تغير من الجدول الزمني للمنطقة[2].

أسفرت التنقيبات الأثرية التي أجرتها فرقة البحث – ومازال البحث متواصل إلى يومنا هذا، حيث بدأت عملية البحث والتنقيب سنة 2010 والعمل يجري بصورة تدريجية إلى يومنا هذا، لأن المكان لا يتوفر على مغارة قلدأمان فقط، بل يتوفر على مغارات أخرى حوالي 10 مغارات، والبحث متواصل في المغارة الأولى "قلد1"، وقد أثبتت التنقيبات الأثرية على وجود بقايا أثرية لفترة ما قبل التاريخ متعلقة بالوجود البشري وأن الحياة في هذه المغارة تعود إلى آلاف السنين، و هي تشمل بقايا العظام التي تنتمي إلى أنواع حيوانية مختلفة و نباتات، و المغارة تكسوها أحجار تشكلت من التسربات الكلسية وأعمدة تشهد على عمليات تسلل وفيرة ومتكررة للمياه المحملة مع الحجر الجيري المذاب من خلال الشقوق ، التي بنت مع مرور الوقت مجموعة كبيرة ومتنوعة من أشكال صواعد ونوازل دليل على توفر المياه بالمنطقة، وبذلك تبرز العلاقة بين تغير المناخ واحتلال الموقع، وشظايا وصناعة حجرية تضم عدة أدوات، وما إلى ذلك من بقايا الفخار وعثر داخل الفخار بقايا شمع العسل والقمح والشعير، والقواقع البحرية، ما يشير إلى وجود نظم الزراعة، بالإضافة إلى القلائد والحلي وبيض النعام وأواني المطبخ من معدات طحن والأدوات المنزلية التي تعود لفترة العصر الحجري الحديث .

فهذا الاكتشاف يسمح لنا بإعادة بناء بيئة تلك الفترة، لأن المناخ كما نعرف كان مغاير للمناخ الحالي، وبمعرفة نمط معيشة الإنسان المحلي في تلك الفترة ،خصوصا ما تعلق بالحياة اليومية والنشاط الاقتصادي الذي كان

[2] للتطلع أكثر حول الموضع أنظر:

Farid Kherbouche, Le néolithique tellien de la grotte de Gueldaman GLD1 Babors d'Akbou , Algérie, VIII-V millénaire BP)thèse de doctorat en Archéologie et Préhistoire, Université Toulouse le Mirail - Toulouse II, 2015

يمارسه، والأدوات المستخدمة حينها، بهذه المغارة التي كانت تأويه منذ آلاف السنين، والصخور الرسوبية بهذه المغارة التي تعود إلى آلاف السنين، غنية بالمعلومات التي تسمح لنا برسم مشاهد تقريبية للنمط المعيشي لأسلافنا، الذين لا نعرف شيئا عن سبل عيشهم ومعتقداتهم (Kherbouche,2015 :5-32).

2. مدينة بجاية في الفترة البونية والنوميدية:

أنشأ الفنيقيون عند مجيئهم إلى هذه المنطقة "محطة صلداي" و بناء على ذلك فإن اسمها مشتق من نفس الاسم الذي اشتق منه اسم جزيرة سردينيا التي أسماها الفينيقيون أيضا (مالتسان، 2011: 40)؛ تقع محطة صلداي على شاطئ خليج مصب وادي الصومام، الذي يضفي البحر المتوسط. هذا ما جعل ميناءها يكون محميا طبيعيا من الرياح الشمالية الغربية، و بذلك فهو يقدم أحسن ملجأ للقوارب و السفن، ويمكن أن تكون هذه المحطة البحرية قد استعملت منذ حوالي القرن الرابع ق.م حيث أشير إليها في رحلة سيلاكس (Périle de Scylax, n 111).

عثر في المنطقة على آثار قرطاجية كثيرة منها قبور محفورة في الصخر ونصب جنائزية وكتابات فينيقية أو بونيقية. لكن مع فقدان قرطاجة السيادة على المنطقة إثر انهزامها في الحرب البونية الثانية، انتقلت بجاية إلى مملكة نوميديا بقيادة ماسينيسا ثم أبنائه من بعده وذلك الى أن انهزم يوغرطة في سنة 105 ق.م، وبعد هزيمة يوبا الأول وانتحاره في تابسوس سنة 46 ق.م، استولى يوليس قيصر على أراضيه، ومنها صلداي، انتقلت نوميديا الغربية المنطقة الممتدة من حدود وادي الملوشة (الملوية) غربا إلى وادي الأمساغا (الكبير) شرقا إلى مملكة موريطانيا (Féraud,1969 :125) ، واستمرت على هذا الوضع إلى وفاة الملك بوخوس الثاني سنة 33ق.م دون ترك وريث فآلت مملكته إلى أوكتافيوس، لكن هذا الأخير حكمها دون ضمها إلى أملاك روما، واكتفى بإقامة بعض المستعمرات بعضها في موانئ قرطاجية قديمة، ومن بين المستعمرات مستعمرة صلداي(Decret, Fanter, 1981 : 164) ومستعمرة توبوسوكتو[3] على ضفاف وادي الصومام في الداخل ((بشاري، 2009: 329).

[3] مستعمرة توبوسوكتو: تقع هذه المدينة في جنوب بجاية على بعد 25 كلم و على الطريق الروماني الذي كان يعبر بالتوازي مع مجرى وادي الساحل، تحتل موقعي تكون من عدة مستويات، منها جهة مرتفعة تحتوي أساسا لخزانات الكبيرة و تقع في الجهة الغربية من الموقع، وجزء من الموقع يحتل الذراع الشمالي و الشرقي من هضبة تيكلات التي تنحصر بين مجرى وادي الصومام و سهل القصر و جزء من هذا الموقع توجد أثاره على المجرى الحالي من وادي الصومام أسست هذه المستعمرة في عهد الإمبراطور أوكتافيوس في

3. مدينة بجاية في الفترة الرومانية:

نجد حضور" صلداي" في المصادر الأدبية مما يدل على أهمية هذه المستعمرة ، حيث أطلق المؤرخ بلينوس (Pline , T1, s.d : xx)على مدينة صلداي اسم مستعمرة "يوليا أوغسطا الصالدية " ، و قد رفعها في اعتقاده اوكتافيوس أغسطس إلى مقام مستعمرة(مالتسان، 2011: 40)، ويرى سترابون أنها كانت في العهد الأوغسطي نقطة الحدود بين ولايات ملك موريتانيا "يوبا الثاني" وبين اقليم نوميديا الروماني بقوله:" ما بين قيصرية ورأس تريتون ينفتح ميناء واسع جدا يعرف باسم صالداس وهنا تقع الحدود بين مملكة يوبا والمقاطعة الرومانية (Strabon, XVII : 12).

بدأ التاريخ الروماني لهذه المدينة منذ فترة حكم الإمبراطور أوكتافيوس، حيث أسست كمستعمرة رومانية أطلق عليها اسم Colonia Julia Augusta Salditana Septimana legionis imunis (Féraud,1969 :124)، لكي يسكنها عناصر من الفرقة العسكرية الأغسطية السابعة، و هذا استنادا الى نقيشة عثر عليها في المنطقة تدل على ذلك (CIL.VIII, 20683)، (بشاري، 2009: 329).

حدود 25 ق.م و هذا في إطار تعمير المناطق الداخلية و الساحلية من مملكة موريطانيا وذلك قبل أن تتحول إلى الحكم المباشر الروماني، و كان دورها هو مراقبة يندرج ضمن تعمير هذه المنطقة بمراكز سكنية رومانية و تحصين الطريق الرئيسي الذي كان يربط بين صلداي و أوزيا، فكانت في الأصل عبارة مركز عسكري على خط دفاعي روماني لمراقبة الطريق الروماني الذي يربط بين صلداي في الساحل و أوزيا في الجنوب، ثم تطورت من الناحية العمرانية لتتحول إلى مدينة كبيرة و مهمة اقتصاديا و عسكريا، تحمل اسم توبوسوبتو في الفترة القديمة و هذا حسب ما تأكده نقيشة لاتينية عثر عليها في هذا الموقع مؤرخة بعام 55 م Tubusuctu Colonia Iulia Augusta Legionis VII ووردت أيضا فينقيشة أخربعلا لنحوا لتالي Col(oniae) Iul(iae) Aug(ustae)TubusuctitanaeLeg(ionis) VII Immun(is) وهي مؤرخة بعام 74م ،جاءت هذه النقيشة بنفس المعلومات التي تؤكد على أنها كانت مستعمرة و فيها لفرقة الأغسطية السابعة رغم وجود نقيشة قد رسمت هذه الرتبة، ربما كتب الأخيرة منه ما عندما ،لكن حق الإعفاء الضريبي قد تحصلت عليه منذ عهد الإمبراطور أغسطس ظهر تهذه المدينة في عدة أخبار تاريخية مرتبطة بالمنطقة منها ثورة تاكفاريناس، حيث كانت من بين المدن التي تعرضت لهجمات هذا القائد كما تعرضت لها مدينة صلداي، و ظهرت في حرب الحلف القبلي الخماسي على أنها مستقبلة للإمبراطور ماكسيميانوس عندما جاء إلى هذه المنطقة من أجل إخماد هذه الثورة في القرن الثالث ميلادي، كما ظهرت على أنها أصبحت من المدن التابعة لمقاطعة موريطانيا السطايفية في 303 ميلاد يبعد الإصلاحات التي قام بها الإمبراطور ديوكليسيانوس، و أصبحت مدينة تبوسوكتوم جزء من موريطانيا السطايفية، و ذكرت كذلك في 372 عندما جاء القائد الروماني تيودوس، إلى هذه المنطقة لمحاربة فيرموس، الذي قاد ثورة ضد الرومان في هذه المنطقة و في غرب جرجرة، و كان دور هذه المدينة استقبال القائد الروماني تيودوس و جيشه عندما انتقل من مدينة سطيفيس إلى هذه الجهة و كانت قاعدة انطلاق مختلف حملاته العسكرية ضد فيرموس (إيعيشوشن، 2016: 136-138).

صارت صلداي من أهم المستعمرات في عهد يوبا الثاني بعد عاصمته القيصرية ، بعدما أُعيد له مملكة والده ومملكة بوخوس تعويضا له عن ولايات أبيه التي استولت عليها الإمبراطورية الرومانية نهائيا (Féraud,1969 :124).

شهدت بجاية نشاطا تجاريا جعلها تتمتع بكثير من الرخاء، و ما لبثت أن أصبحت مقرا أسقفيا، إلا أن هذا الرخاء لم يدم لأن سكان المنطقة ضاقوا من التواجد الروماني فقاموا بثورات ضدهم، حيث تعرضت المدينة لهجمات القائد المحلي تاكفاريناس في 17 م- قبل أن يتمكن البروقنصل "دولابيلا" من طرد المجموعات المحلية نحو جبال جرجرة (عمارة،2008 : 230) ، ثم في فترة حروب قبائل البوار في القرن الثالث ميلادي و تبعتها حرب الحلف القبلي الخماسي في 253 م أين كانت بجاية جزء من مسرح هذه الأحداث، ثم في حرب فيرموس في القرن الرابع، في عهد الإمبراطور دقلديانوس أصبحت بجاية ضمن المدن التابعة إداريا لمقاطعة موريطانيا السطايفية و هذا بعد الإصلاحات الإدارية التي طبقها هذا الإمبراطور بعد عام 297 م(Lacroix, 1844 :79).

تم بمدينة صلداي بناء طرق لربطها بالمدن الرومانية في شمال إفريقيا ، كما قام "نونيوس داتوس" بتشييد قنطرة المياه(Aqueduc) والقنوات لنقل مياه توجة إلى صلداي (Jean-Pierre, 1999 : 747) ؛ وساهمت هذه العوامل في تطوير المدينة التي لعبت دورا مهما في مقاطعة موريطانيا بفضل النشاط الاقتصادي لسكانها ودورهم في تنمية المبادلات التجارية مع المناطق الداخلية(عمارة،2008: 230).

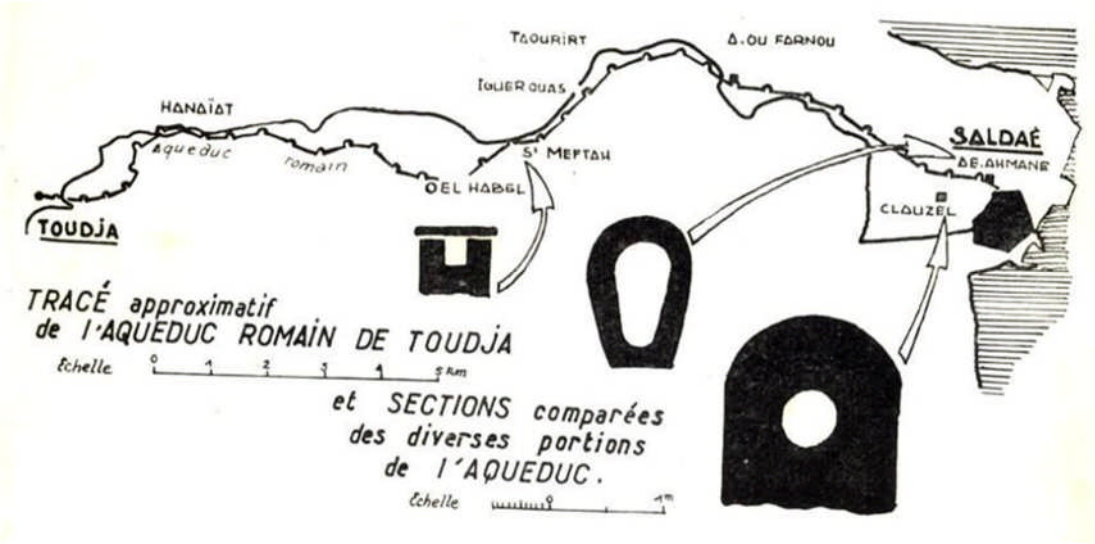

شكل رقم 01: خريطة توضح قنوات نقل المياه من توجة نحو صلداي التي تم بنائها على مرحلتين من طرف

نونيوس داتوس (NONIVS DATVS) سنة م 145

شكل رقم 02: صور توضح قنوات نقل المياه من توجة نحو صلداي التي تم بنائها علي مرحلتين من طرف نونيوس داتوس (NONIVS DATVS) سنة 145 م

عرفت صلداي تطورا بشريا وعمرانيا ملحوظا في العهد الروماني، فقد عثر في العديد من المواقع على أعمدة (Gsell, 1977 , f.7, n° 12) من الغرانيت ونقوش وآثار الساحة العامة، وقواعد لتماثيل وفسيفساء

ورغم اختفاء الكثير من آثار المدينة الرومانية بفعل التغيرات التي شهدتها عبر مختلف مراحل تطورها، تبرز الآثار المادية القليلة التي وصلتنا أن المدينة ونظرا لمحدودية الإمكانيات الاقتصادية الطبيعية للمنطقة إذا استثنينا الثروة الغابية، فإن الفضل في التطور الذي شهدته لا يمكن أن يعود إلا إلى نشاط ميناءها سواء كان في مجال الصيد البحري أو التجارة الساحلية أو الخارجية، فقد أعطى الميناء مدينة صلداي طابعا تجاريا يقصدها التجار الرومان والأهالي من المناطق المجاورة، فمزارعو المناطق القريبة يحملون الزيتون والتين، وسكان السهول العليا الحبوب ومنتجات أقصى الجنوب، في نفس الوقت كانت السفن تصل محملة بمنتجات الضفة الشمالية للبحر المتوسط، وتبحر محملة بالمحاصيل المحلية(بشاري، 2009: 330).

1.3. النشاط التجاري القديم لمدينة بجاية:

تجمع الدراسات التاريخية التي تناولت دراسة مدينة صلداي، بأن المنطقة عرفت دورا تجاريا مهما منذ القدم و من جهة أخرى فإن المخلفات الأثرية التي وجدت بالمنطقة تؤكد لنا الدور الفعال الذي كان يلعبه ميناء صلداي. بالرغم من افتقارنا إلى الأدلة التاريخية الكافية عن طبيعة المبادلات التجارية ومناطق التسويق سواء في عهد الممالك الوطنية، وفي الفترة البونية، ومع ذلك فإننا نلمس وجود نوع من الحركة التجارية في قرطاجة التي حلت مكان فينيقيا في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وهذا ما سمح لها باحتكار المبادلات التجارية في هذا الجزء (محمد الحبيب بشاري،

2015: 43) و في هذا الإطار، تكشف لنا النقوش العلاقات الإقليمية القائمة بين صلداي و ايول "IOL"شرشال حاليا) و قونوقو (قوراية، وبين أيول و طنجة و ربما طنجة مع صلداي، إذ تم العثور في وليلي (Volubilis)على جرار من الزيت تكون قد نقلت من صلداي إلى طنجة (حارش، 1985: 193) ، و يفهم من بعض المصادر أن الاتصال بين طنجة و صلداي ظل قائما عن طريق البحر حتى وقت متأخر. كما عثر على آثار الجرار التي استعملت لنقل الزيت والخمور وهي تحمل ختم مدينة "توبوسوكتو" في كل من هضبة "تستاكسيو" بميناء "أوستيا(CIL.XVIII,2634,2635)"، وكذلك في عدة مواقع من مدينة روما، وحمامات ديوقليسيانوس، وحدائق تورلونيا (بشاري، 2009: 338)

و عليه، فإن محطة صلداي و مدينة توبوسوكتو كانتا من أهم مراكز التموين الإفريقية التي ساهمت في إنعاش الحركة التجارية خاصة خلال العهد الروماني و لاشك أن الرومان قد عملوا على ربط مناطق الإنتاج بالموانئ التي رمموها و وسعوها و أنشئوا بها المستودعات تسهيلا لعمليات التصدير(حداد، 2009: 102). حيث نقلت روما من ميناء صلداي إنتاج المنطقة وجزء من إنتاج المناطق المجاورة لها من حبوب وزيوت وخمور ورخام وخشب .(Lecocq, 1912 : 543-545).

2.3. اللقى الأثرية المتواجدة بميناء صلداي:

حظي ميناء بجاية التجاري عبر العصور باهتمام المؤرخين وخاصة الأجانب فلا تقل مدينة صلداي أهمية عن بقية المدن الساحلية الأخرى، و لذلك فإن الدور الذي لعبه خلال الفترة البونية والرومانية وما والاهما وحتى العصور اللاحقة، لا يمكن أن يستهان به، والأدلة الأثرية على ذلك لا تعدو لا تحصى، تم تلت في مجملها في الأواني الفخارية و مجموعة من التماثيل و النصب و شواهد القبور، إلى جانب الحلي الخاصة بالتزيين، و غيرها من البقايا الأثرية التي تعود إلى فترات تاريخية مختلفة، و فيما يلي سنورد نماذج منها:

–العملة: لقد كانت لمدينة صلداي عملة خاصة بها، ،و ذلك ما يبرهن على أنها كانت تتمتع بنوع منا لاستقلالية في المجال التجاري. و من هذه العملة لدينا قطعة نموذجية مصنوعة من البرونز خاصة بمدينة صلداي

تحمل المواصفات التالية: يظهر على الواجهة صورة لرأس إمرأة لا يستبعد أن تكون الآلهة حامية المدينة، شعرها بتسريحة، يغطي وجهها رداء مسدول على الكتفين، كما يظهر على هذه القطعة كتابة حرف بوني و هو حرف."G" أما من جهة الظهر فتوجد صورة لحصان يجري نحو اليمين و في الأسفل منه توجد كتابة بحروف بونية(SLDN) ، تشير إلى اسم صلدانا(Saldana) ، تعود إلى حوالي القرن الأول قبل الميلاد، و تزن: 5.69 غ قطرها 21 مم (حداد، 2009: 143).

شكل رقم 03: العملة المتداولة في صلداي. عن: Mazard, 19555 :255

–قنينة العطر: هذا النوع من القنينات غاية في الدقة و الجمال، و هي بأشكال زخرفية مختلفة، منها ما يزال محافظا على شكله و منها ما تعرض للكسر. و قد كانت قنينات العطور من المقتنيات الهامة في البيت المغاربي القديم على مر العصور، تعد من أدوات الزينة التي كانت تتألف من الأمشاط والمكاحل و دبابيس الشعر و الملاقط و قوارير العطور. و لم تكن تتخذ هذه الأواني كأوعية للعطور و الدهون و الزيوت فحسب، بل كانت تصنع كذلك في أشكال جمالية، و تعد من الأعمال الفنية، حيث أنها كانت تصنع من الخشب و العاج و الطين، و تتخذ أشكالا متطورة للحيوان و الإنسان و الطير و السمك. و قد كان يعثر عليها في القبور ضمن الأثاث الجنائزي، أو تصور في شكل زخارف على الجدران، و يمكن أيضا أن توضع قرب المتوفى أو المعبود (حداد، 2009: 143).

شكل رقم 04: قنينة عطر مزخرفة مصنوعة من الطين

–الجرار الفخارية: يحتفظ متحف بجاية بعدد لا بأس به من الجرار الفخارية، نذكر منها تلك الجرة ذات الثلاث فصوص، التي تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد. بالإضافة إلى الأقنعة و رؤوس تماثيل و هذه الأخيرة هي عبارة عن رؤوس لأشخاص مصنوعة من الطين، لدينا نموذجين منها: الأول يمثل رأس لشخص، أما الرأس الثاني فهو لامرأة، قد تعرض للكسر على مستوى العنق، عثر على هذه الرؤوس في تنقيبات فولكر بمقبرة رومانية تعود إلى القرنين الثاني و الثالث قبل الميلاد.

شكل رقم 05: أقنعة ورؤوس تماثيل مصنوعة من الطين

–الحلي: عثر على عدد منها في منطقة بجاية الحالية و هي خاصة بالتزيين، و من هذه الحلي لدينا سواران مصنوعان من الأحجار الكريمة، و هيب ألوان و أحجام مختلفة، تعود إلى القرنين الرابع و الثالث قبل الميلاد(حداد، 2009: 145- 147).

شكل رقم 06: سوارين مصنوعين من أحجار كريمة

4. مدينة بجاية في الفترة الوندالية والبيزنطية:

استمرت الاضطرابات بالمنطقة حتى وصول الوندال في القرن 5م حوالي سنة 430م ، الذين اتخذوا من صلداي عاصمة لهم، وأمر جنسريق الملك الوندالي بتوسيع أسوارها، التي لا تزال الى اليوم، لكن المدينة في عهدهم لم تشهد أي ازدهار أو تطور، فقد بدأت تتلاشى شيئا فشيئا، وسميت هذه المدينة في عهدهم بغور GOUR أي الموقع الصخري، وظلت على هذا الحال إلى غاية مجيء البيزنطيين، و استطاعت الجيوش البيزنطية القضاء على آخر ملوك الوندال سنة 534م، وبذلك دخلت صلداي تحت سلطة ونفوذ البيزنطيين، وفي عهدهم كانت صلداي مدينة جد محصنة وبها سور كبير(Féraud,1969 :49).إلا أن البيزنطيين واجهوا عدة ثورات قامت بها المدينة، وقد استمر حكم البيزنطيين أكثر من قرن قبل أن يطردهم منها المسلمين الفاتحين لبلاد المغرب بصفة عامة وبجاية بصفة خاصة.

5. مدينة بجاية في الفترة الاسلامية:

ارتفع شأن صلداي من جديد في القرن الحادي عشر ميلادي، حيث قام "الناصر بن علناس الحمادي"(أحد أمراء الدولة الحمادية من قبيلة صنهاجة) ببناء مدينة بجاية حوالي سنة 460هـ– 1067م، وعن اختيار موقع مدينة بجاية يقول الحموي:" مدينة على ساحل البحر بين افريقية والمغرب، كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن زيري بن مناد بن بلكين، و كان السبب في اختطاطها أن تميم بن المعز بن باديس صاحب افريقية أنفذ الى ابن عمه الناصر بن علناس محمد بن البعبع رسولا لإصلاح حال بينهما فاسدة، فمر ابن البعبع بموضع بجاية وفيه أبيات من البربر قليلة فتأملها حق التأمل؛ فلما قدم على الناصر غدر بصاحبه و استخلى الناصر..، وأشار عليه بناء بجاية، و استركبه وأراه المصلحة في ذلك، والفائدة التي تحصل له من الصناعة بها وكيد العدو ؛ فأمر من وقته بوضع الأساس وبناها ونزلها بعسكره" (الحموي، 1977: 339)

وبعد تشييد مدينة بجاية من قبل الناصر بن علناس أطلق عليها اسمه وأصبحت تعرف بالناصرية، و لكن سكان المنطقة غلبوا عليها اسم: ابقايث، البربري الذي كان اسما لإحدى القبائل الأمازيغية القاطنة هناك قبيلة بقاية و بقايث في لغة أهل المنطقة حسب رواية ابن خلدون (ابن خلدون1981:357). وما تزال هذه التسمية الأمازيغية حتى اليوم مستعملة من طرف سكان المنطقة ذوي الأصول الأمازيغية، وهي التي صفت بالعربية وأصبحت هكذا: بجاية في المصادر العربية، والنطق العربي. كما أنشأ بها دارين لصناعة المراكب والسفن والأساطيل الحربية، وبنى بها القصور كقصر اللؤلؤة ، وأقام بها المباني والصناعات والفنون ، ما جعلها قبلة لطلاب الحضارة ورواد المدينة الناصرية من أهل الشرق والغرب، فبلغت بجاية ذروة ازدهارها ، إذ أصبحت من أجمل الحواضر الإسلامية في هذه الفترة ، حيث قال فيها للشاعر أبي علي حسن بن الفكون القسنطيني يصف بجاية الناصرية:

دع العراق و بغداد و شامهما فالناصرية ما إن مثلُها بلدُ

بر و بحر و موج للعيون به مسارحُ بان عنها الهم و النكدُ

حيث الهوى و الهواء الطلق مجتمع حيث الغنى و المني و العيشةُ الرغدُ

و النهر كالصل و الجنات مشرفة و النهر والبحر كالمرآة و هويدُ

فحيثما نظرتَ راقت و كل نواحي الدار للفكر للابصار تتقدُ

إن تنظر البر فالأزهار يانعة أو تنظر البحر فالأمواج تطردُ

يا طالبًا وصفها إن كنت ذان صفق لجنةَ الخلد فيها الأهل و الولدُ (الغبريني، الدراية،دت:3)

وبهذا تكون بجاية ثاني عاصمة للدولة الحمادية بعد قلعة بني حماد، وأول عاصمة على الشريط الساحلي، وصاحبة القرارات السياسية في المغرب الأوسط، حيث استطاعت أن تفرض نفسها في حوض المتوسط، نظرا لموقعها الاستراتيجي المطل على البحر والمحمية طبيعيا بالجبال[4].

[4]للتطلع أكثر حول الموضوع أنظر: HISTOIRE DES VILLES DE LA PROVINCE DE CONSTANTINE L. Charles Féraud BOUGIE, L. ARNOLET, Libraire-Éditeur, rue du Palais,Constantine,1969 ؛جان ليون، قصة الحضارة في افريقيا جغرافية و تاريخ تلمسان و بجاية و تونس و نوميديا و الشمال الافريقي ، ترجمة نور الدين

شهدت بجاية حركة علمية وفكرية هائلة خلال العصر الحمادي، والعصور التي تلته إلى مطلع القرن السادس عشر الميلادي، بفضل انتشار مراكز التعليم كالمساجد والكتاتيب والزوايا، التي أدت دورا مهما في الازدهار الحضاري، وقد ساهمت هذه المؤسسات في تنشيط حلقات العلم والمناظرات بين العلماء، هذا إلى جانب دور الأمراء في تفعيل نشاط الحركة العلمية. بالإضافة للهجرة الأندلسية نحو المغرب الإسلامي فقد فضل نفر من العلماء الحلول ببجاية، والتي ضمت في صفوفها إعداد كبيرة من العلماء والأدباء والفقهاء إضافة إلى عمال الزراعة والحرفيين والمعماريين. فنبغ بها علماء أجلاء، وفقهاء ذوو الرأي في الشريعة الإسلامية، وشعراء فحول، وحكماء متضلعون في الفلسفة والحكمة، وعلم التوحيد، ولغويون مبرزون، ومحدثون أمناء ومدققون في الرواية، ومتصوفون في القمة، ورياضيون مبتكرون، وطلاب علم ومعرفة، من كل أنحاء العالم الإسلامي شرقه وغربه، من الأندلس إلى بلاد فارس، ومن بلاد أوروبا خاصة ايطاليا وجنوب فرنسا وبلاد اليونان. كان لهم دورا بارزا في بناء معالم الحضارة العربية الإسلامية ، وإرسائها وإثرائها، وتطورها وتوسيع مجالاتها ومفاهيمها ، علما واستيعابا وإبداعا.

كانت الحياة الثقافية والفكرية ببجاية مزدهرة، لقد كانت مقرا لطائفة من علماء الفقه والكلام والتصوف والأدب وعلوم اللغة، كان لهم دور فعال في إثراء الحضارة الإسلامية والنهضة الأوربية ، ففي القرن 6هـ – 12م وجد في بجاية وحدها 90 مفتيا (الغبريني، د.ت: 69)؛ ومن بين هؤلاء العلماء نذكر: أبو يعلى المسيلي وأبو محمد عبد الحق الاشبيلي، وأبو الطاهر عمارة بن يحي أبو زكرياء الزواوي، وأبي مدين شعيب ، أبو علي منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي، أبو العباس أحمد بن محمد القرشي الغرناطي، وحسن بن العكون و ابن محشرة الكاتب وغيرهم يزينون هذا العصر ويسمون بدرجته العلمية.

أصبحت بجاية تضاهي قرطبة والقيروان وغيرها، فقد وطد الحماديون في أول عهدهم صلاتهم الودية بروما، والجمهوريات الايطالية الأخرى، وأبرم الناصر معاهدة مع بيزا، وخول لتجارها حق المتاجرة مع بلاده، وتراسل مع البابا قريقوري السابع، الذي أجابه برسالة أبلغه فيها سروره على قبوله بتعيين اسقف مسيحي في كنيسة بعنابة، وعلى اطلاقه سراح أسرى مسيحيين، وتعهده بإطلاق سراح كل من يقع في الأسر بمملكته، وجدد الموحدون هذه

قورصو، 2011،رابح بونار، بجاية من خلال بعض الرحالة المسلمين،، مجلة الأصالة ، ع 19، مج 7، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف ، تلمسان ، 2011، ص ص 65-66 ؛ علاوة عمارة ، المرجع نفسه.

المعاهدة مع بيزا و جنوة، والبندقية، ومرسيليا، و قطالونية، و بروفانس، وكثر تردد تجار هذه المدن على بجاية للتجارة، والاستفادة من المعارف الإسلامية المزدهرة بها(دائرة المعارف الاسلامية،دت: 253)

ووفي هذا النص يتحدث الشريف الإدريسي عن ما وصلت إليه بجاية من رقي وتطور حضاري هائل في منتصف القرن السادس الهجري (12م)، فقد قال : " بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد ، والسفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برا وبحرا، مجلوبة، والبضائع نافقة، وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات ما ليس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى، وتجار الصحراء، وتجار المشرق، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بواد ومزارع، والحنطة والشعير بها موجودان كثيرا، والتين وسائر الفواكه بها، منها ما يكفي لكثير من البلاد، وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل، والمراكب والحرابى، لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود، ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة ، والقطران، وبها معادن الحديد الطيب ، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة، وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب، من نحو جبال جرجرة، وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب، وكلما بعد عن البحر، كان ماؤه قليلا، ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد، وهي قد عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد". (الإدريسي، 1957: 63)

لقد أدت بجاية دورا سياسيا واقتصاديا وثقافيا بارزا وهاما في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي، وحتى بلاد المغرب القديم، فقد واصلت دورها القديم خاصة في المجال الاقتصادي كمحطة تجارية استقطبت السفن التجارية والتجار من كل مكان، فلعبت دورا بحريا تجاريا هاما عبر العصور ، وكانت نقطة التلاقي بين دول البحر الأبيض المتوسط، وهذا ما يؤكده صاحب الاستبصار في قوله:" وهي مرسى عظيمة تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم، وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر، وبلاد اليمن، والهند والصين وغيرها"(مؤلف مجهول، الاستبصار، 1985: 130).

الخاتمة :

توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى نتائج مفادها أن بمنطقة بجاية يوجد الدليل الذي يفنّد مزاعم الفكر الاستعماري بخلو المنطقة من مظاهر حضارية تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، فقد استخرجت بقايا وأدوات تعود

إلى مختلف عصور ما قبل التاريخ ومغارة قلدأمان خير دليل على ذلك ، ممّا تدل على التواصل الحضاري وأنّ الفراغ الذي بنى عليه مؤرخو وأثريو الفترة الاستعمارية استنتاجاتهم المغرضة يجب إعادة النظر فيه ومواصلة البحث من قبل المختصين لكشف الحقائق و إماطة اللثام على ما أخفاه بعض المؤرخين الأجانب، وإبراز التواصل الحضاري لمدن الجزائر عامة ومدينة بجاية العريقة خاصة ، فقد تعاقبت عليها حضارات منذ العصور الحجرية إلى الفترة الإسلامية و كان لكل حضارة دور حضاري لعبته في ازدهارها ،ومازالت الآثار شاهدة على ذلك.

البيبليوغرافيا:

باللغة العربية

المصادر:

1. ابن خلدون ع. ر. (1981). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج 6، بيروت، دار الكتاب اللبناني.
2. الادريسي م. ش. (1957). وصف افريقيا الشمالية والصحراوية، المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزائر.
3. الحموي ش. د. أ. ع. (1977). ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، مج 1، بيروت، دار صادر .
4. الغبريني أ. ع.أ. (ب. ت.). عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء و المائة السابعة ببجاية، ط 2، تحقيق رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.
5. ليون ج. (2011). قصة الحضارة في افريقيا جغرافية وتاريخ تلمسان وبجاية وتونس ونوميديا والشمال الافريقي، ترجمة نور الدين قورصو.
6. مؤلف مجهول، (1985). كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، تعليق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، دار النشر المغربية.

المراجع (كتب و مقالات)

1. إيعيشوشن، و. (2016). العلاقة بين الريف والمدينة في إقليمي الأوراس وجرجرة في الفترة الرومانية، أطروحة دكتوراه في علم الآثار القديمة، جامعة الجزائر.
2. بشاري، م. ح. (2009). موانئ شرق موريطانيا القيصرية، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور سلما وحربا، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر2
3. بونار، ر. (2011). بجاية من خلال بعض الرحالة المسلمين، مجلة الأصالة، ع 19، مج 7، تلمسان، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.

4. حارش، م. هـ. (1985). التطور السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول 203-46 ق.م، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر.
5. حداد، س. (2009). سلسلة موانئ الشرق الجزائري القديمة(دراسة تاريخية وصفية اعتمادا على المصادر المادية المحلية) ، مذكرة ماجستير تاريخ قديم، جامعة منتوري قسنطينة
6. ساحد، ع. ط. (2014). الدلالات الرمزية للدفن في المجتمع الجزائري خلال فترة فجر التاريخ (حالة معارف وآفاق)، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية-جامعة الوادي، العدد السادس.
7. عقون، ع. (2009). منطقة القبائل الشرقية (الجزائر) في عصور ما قبل التاريخ، الحوار المتمدن، المحور: دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، العدد: 2772.
8. عمارة، ع. (2008). التطور العمراني والتجاري لمدينة بجاية في العصر الإسلامي الوسيط، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 26.
9. مالتسان، هـ. ف. (2011). ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا، ترجمة ابو العيد دودو، مجلة الأصالة،ع 19، مج 7، تلمسان، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.

Les sources :

1. Pline, Histoire naturelle, T1, tr ; Littré M.E, Paris, xx.
2. Strabon, Géographie, XVII

Ouvrages (Livres et articles) :

1. Decret F., Fanter M., (1981). L'Afrique du nord dans l'antiquité des origines au Vème siècle, Paris, Ed. Payot.
2. Feraud L.Ch. (1969). Histoire des villes de la province de Constantine Bougie, L. Arnolet, Constantine, libraire- éditeur, rue du palais.
3. Gsell S. (1977). Atlas archéologique de l'Algérie, 2eme édition, T I, Alger.
4. Kherbouche F. (2015). Le néolithique tellien de la grotte de Gueldaman GLD1 Babors d'Akbou, Algérie, VIII-V millénaire BP), thèse de doctorat en Archéologie et Préhistoire, Université Toulouse le Mirail - Toulouse II.
5. Lacroix L. (1844). Histoire de la Numidie et de la Mauritanie depuis les temps anciens jusqu'à l'arrivée des vandales en Afrique, L'univers. Afrique : esquisse générale de l'Afrique et Afrique ancienne. Carthage. Numidie et Mauritanie. T. III.
6. Laporte J.-P. (1999). « Notes sur l'aqueduc de Saldae) Bougie, Algérie) », in Robert Bedon dir., Les aqueducs de la Gaule romaine et des régions voisines (Caesarodunum, 31), Limoges, Presses universitaires de Limoges.
7. Lecocq A. (1912). Le Commerce de l'Afrique romaine, Société de Géographie et d'Archéologie de la province d'Oran, Tome 32, Alger, Imprim. Typographique et Lithographique L. FOUQUE.
8. Mazard J. (1955). Corpus nummorum Numidiae Mauretaniaeque, Paris.